مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

# جوانب من الحماية الإسبانية في المغرب من منظور مشرقي

**مراد المعاشي**
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين الدار البيضاء
سطات – المملكة المغربية

## مُلَخّص

*نعتبر الرحلة من بين أهم الوسائل التي اعتمدتها الدول وخاصة الأوربية للتوغل داخل المجال المغربي، وفهم الذهنية المغربية للتمكن من السيطرة عليها وإخضاعها، وتبعا لذلك زار المغرب عدة رحالين أوروبيين وغير أوربيين عبروا عن مواقفهم من المغرب والمغاربة، سواء في الفترة قبل الاستعمارية، أو خلال الفترة الاستعمارية، إلا أننا أمام رحلة غير مألوفة، فصاحبها أتى من المشرق العربي، يحمل أفكار العروبة والوحدة العربية، فأكيد أن نظرته للمغرب والمغاربة ستختلف عن نظرة الأوربي، كما أن سياق رحلة أمين الريحاني إلى المغرب مثير للجدل، حيث زار المنطقة الخليفية مباشرة بعد انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية التي قادها الجنرال فرانكو ضد الجمهوريين ابتداء من سنة ١٩٣٦ إلى غاية سنة ١٩٣٩، وهو ما أضفى على الرحلة بعدا سياسيا. وبما أن هذه الرحلة لم تحظ بالاهتمام الكبير ارتأينا تقديم شذرات منها خلال هذا المقال، نهدف من خلاله تبيان جوانب من المغرب زمن الحماية الإسبانية كما رآها أحد الرحالين المشارقة، سنتناول فيها تعريفا بصاحب الرحلة وسياقها العام، وكذلك موقفه من مشاركة المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية، معرجين في الأخير إلى "النهضة الوطنية" في المنطقة الخليفية من خلال وجهة نظر صاحب الرحلة، متبعين في ذلك منهجا تحليليا، يرنوا إلى تبيان الأهداف الحقيقية من وراء الرحلة، والتي فضل صاحبها التستر عليها، والهدف من كل ذلك هو إثارة الانتباه إلى هذه الرحلة الغنية بالمعطيات التي قلما يتم الالتفات إليها، خاصة من قبل الباحثين في تاريخ الحماية الإسبانية بشمال المغرب أو ما يعرف بالمنطقة الخليفية.*

## بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ١٣ يوليو ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٢ أغسطس ٢٠٢٠

## كلمات مفتاحية:

المغرب؛ أمين الريحاني؛ الحماية الإسبانية؛ المنطقة الخليفية

**معرِّف الوثيقة الرقمي:** DOI 10.21608/KAN.2020.185130

## الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مراد المعاشي. "جوانب من الحماية الإسبانية في المغرب من منظور مشرقي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١٢٩ – ١٣٥.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

**Corresponding author**: morad.elmaachi@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

**Open Access** This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

## مُقدِّمَةٌ

عَرِفَ المغرب ابتداءً من سنة ١٩١٢م، وضعًا سياسيًا جديدًا، تمثل في فرض الحماية الفرنسية عليه بتاريخ ٣٠ مارس ١٩١٢م، ثم بعد ذلك جاءت الاتفاقية الفرنسية-الإسبانية بتاريخ ٢٧ نونبر ١٩١٢م، التي نصت على اقتطاع الجزء الشمالي من المغرب ووضعه تحت الحماية الإسبانية، وقد أدى هذا الوضع إلى تجزيئ الدولة المغربية إلى ثلاثة أقسام؛ الحماية الفرنسية بوسط البلاد، وتسمى أيضًا بالمنطقة السلطانية، والحماية الإسبانية بالشمال، وتسمى بالمنطقة الخليفية[١]، ثم منطقة طنجة الدولية.

انطلاقًا من ذلك، أضحت الدراسات التي تهتم بتاريخ المغرب زمن الحماية، تنقسم إلى دراسات خاصة حول منطقة الحماية الإسبانية، ودراسات أخرى حول منطقة الحماية الإسبانية، إضافة إلى منطقة طنجة الدولية، نظرًا لأن كل منطقة كانت لها تنظيماتها الخاصة ومؤسساتها الخاصة...إلخ. ارتباطا بهذا الوضع، قام أمين الريحاني بزيارة إلى المغرب وبالضبط إلى المنطقة الخليفية سنة ١٩٣٩م، دون من خلالها كتابًا خاصًا، عنونه بالمغرب الأقصى، تناول فيه مجموعة من القضايا التي تهم البلد في علاقته بالحماية الإسبانية.

سنحاول خلال هذه المقالة استخراج ما جاء به الريحاني حول ما سماه بمزايا الحماية الإسبانية بالمنطقة الخليفية، ومقارنته بنصوص أخرى، وذلك لمعرفة مدى مساهمة إسبانيا الفعلية في تطوير المنطقة؟ وهل كانت تهدف إلى تطوير المنطقة انطلاقا من العلاقة الأخوية بين الشعبين كما عبر عن ذلك؟ ثم سنحاول الإحاطة بالظروف الدولية المتحكمة في علاقة إسبانيا بالمنطقة الخليفية؟ وسنقف في النهاية عند نظرته للمغرب والمغاربة؟

## أولاً: التعريف بصاحب الرحلة وسياقها العام

### ١/١-التعريف بصاحب الرحلة

أمين الريحاني، مُؤَلِف كتاب المغرب الأقصى، صحافي ورحالة ومترجم وداعية قومي عربي من لبنان، ولد سنة ١٨٧٦م، هاجر في سن مبكرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وتنقل بين مجموعة من الدول، كفلسطين وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.... شارك في أحداث الثورة العربية ضد الدولة العثمانية سنة ١٩١٦م، وقام بعد ذلك بسلسلة من الرحلات إلى الأقطار العربية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، أولها رحلته إلى شبه الجزيرة العربية سنة ١٩٢٢م، التي شكلت مادة لكتابه الشهير "ملوك العرب" الصادر سنة ١٩٢٤م، ثم "تاريخ نجد وملحقاته" سنة ١٩٢٧م، ثم "قلب العراق" سنة ١٩٣٥م، كما ألف كتبا أخرى؛ منها "النكبات: خلاصة تاريخ سوريا" سنة ١٩٢٨م، و"فيصل الأول"{ملك العراق} سنة ١٩٣٣م. وله كذلك "الريحانيات"، "قلب لبنان"، "القوميات". وهو على العموم غزير الإنتاج باللغتين العربية والإنجليزية. قام برحلة إلى المغرب وتحديدا إلى المنطقة الخليفية في الفترة ما بين ماي ويونيو من سنة ١٩٣٩م، ألف خلالها كتابه "المغرب الأقصى". وافته المنية بعد عودته من المغرب بمدة قصيرة وبالضبط في ١٣ شتنبر من سنة ١٩٤٠م، ولم يخرج مؤلفه هذا إلى الوجود إلا برغبة من أخيه "ألبرت الريحاني"[٢].

الكتاب في أصله المخطوط معنون "بالمغرب الأقصى نور الأندلس"، لكن ألبرت الريحاني رأى أن موضوع الأندلس بعيد نسبيًا عن موضوع "المغرب الأقصى" فقام باستلاله من الكتاب في طبعته الثانية سنة ١٩٧٥م. فكتب بهذا الصدد: "نور الأندلس كما ذكرت في مقدمته، استللته من كتاب المغرب الأقصى في طبعته الأولى لموضوعه المستقل عن كتاب المغرب الأقصى وقد ضمنته التسعة فصول من الجزء الثالث في المغرب الأقصى..."[٣]. يقع كتاب "المغرب الأقصى" في طبعته الثانية لسنة ١٩٧٥م -الذي نشر بدعم من مؤسسة الريحاني بيروت ودار الثقافة بيروت -في ٥٥٧ صفحة؛ يضم بين ثناياه توطئة لألبرت الريحاني ومقدمة، ثم الفهرس، ويحتوي الكتاب على ثلاثة أجزاء، وملحق. يتضح من خلال اطلاعنا على محتويات رحلة الريحاني، نزعة تفضيلية للحماية الإسبانية على نظيرتها الفرنسية، متأثرا نوعا ما بشخصية المقيم العام آنذاك خوان بيكبيدير، الذي كان مضيفه خلال رحلته هاته، وقد خصص له فصلا كاملا لذكر مناقبه.

### ٢/١-السياق العام للرحلة

شهدت إسبانيا سنة ١٩٣٦م، حدثا تاريخيا مهما، وهو انقلاب الجنرال فرانكو على النظام الجمهوري بإسبانيا، وقد تطور الأمر إلى حصول حرب أهلية. انطلق هذا الانقلاب من المغرب[٤]، بل الأكثر من ذلك قام فرانكو بالسيطرة على مدينة تطوان عاصمة المنطقة الخليفية[٥]، وباقي المدن الرئيسية بها[٦]، واتخذها درعا له في مواجهة الجمهوريين، وكان لهذا الحدث بالغ الأثر في علاقة فرانكو بالمنطقة، لأن أي تهديد يأتيه منها يعني نهاية ثورته أو انقلابه.

بعد سنوات من الصراع استمرت من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩م، استطاع فرانكو القضاء على الجمهوريين وحكم الدولة الإسبانية، وفرضت الظروف الدولية عليه التعامل مع المنطقة الخليفية بحذر شديد، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وفرض الدول المنتصرة فيها حصارا على إسبانيا، مما أدخلها في عزلة عن العالم الغربي، ظهر للوجود ما سمي بالصداقة العربية الإسبانية، وحاولت إسبانيا تبرير استعمارها للمنطقة الخليفية لأجل التقرب من الدول العربية، يقول أحد الباحثين "إن فك الحصار الخارجي، وتزيين صورة النظام، هما اللذان دفعا نظام فرانكو إلى التمسك باستعمار المنطقة {الخليفية}... رغم قلة الإمكانيات الذاتية، فقام بإدخال مجموعة من الإصلاحات على جهاز الحماية والأوضاع بالمنطقة، حتى تساهم هذه الأخيرة في فك الحصار والعزلة المضروبة على النظام، وتكون حجر الزاوية وعربونا على الصداقة المصطنعة مع العالم العربي الإسلامي، لخدمة المصالح الإسبانية..."[٧].

في سياق هذه الحملة الدعائية والتبريرية لاحتلال الإسبان المنطقة الخليفية، وبهدف التقرب من الأنظمة العربية لفك العزلة والحصار عن الدولة الإسبانية، جاءت زيارة أمين الريحاني للمغرب أو بشكل أدق للمنطقة الخليفية منه.

## ثانيًا: موقف الريحاني من مشاركة المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ـ ١٩٣٩م)

ميز الريحاني بين مرحلتين في الحماية الإسبانية للمنطقة الخليفية؛ مرحلة ما قبل فرانكو، التي كانت حسب رأيه، مرحلة سلبية شبيهة بأختها الفرنسية في شتى المجالات. ومرحلة فرانكو التي نسب لها كل التطورات التي عرفتها المنطقة، والنصوص التي تسير في هذا المنحى موجودة بكثرة داخل مؤلفه منها قوله "ما تمتعت الصحافة في هذه المنطقة، ولا تمتعت الجمعيات والأحزاب بحرية الفكر والنشر. والاجتماع في العهدين السابقين لعهد الثورة"[٨]، ويقصد بالثورة انقلاب فرانكو على الجمهوريين.

تشير المصادر المعايشة للحظة الحرب الأهلية الإسبانية، إلى كون فرانكو أسس نواة جيشه من مغاربة ريفيين[٩]، وبمساعدتهم استطاع إخضاع المنطقة الخليفية لحكمه[١٠]. وحاول أمين الريحاني استغلال هذا الأمر ليبرهن على أن المغاربة شاركوا في هذه الحرب إلى جانب فرانكوا حبا في هذا الأخير، محاولا بذلك الإلماع إلى تقبل المغاربة للحماية الإسبانية ورضاهم عليها، وقد ساق أمثلة للتأكيد على كلامه، منها وصفه للعلاقة التي تربط الخليفة الحسن بن المهدي بالرعية، وهي علاقة حب على الرغم من علاقته بالإسبان، وذلك لأن هذه العلاقة مع الإسبان ناشئة من المصالح المشتركة بين البلدين، وهذه العلاقة بين الخليفة والدولة الحامية هي منقطعة النظير في العالم العربي[١١]، كما استشهد بقول للمندوب السامي خوان بيكبيدير جاء فيه "لا يفسد الصلة بيننا وبين سمو الخليفة غير المصالح المتناقضة، ليس بيننا شيء منها ـ ليس ما يوجب الضغط والإكراه ـ ختم الخليفة الحسن بيده لا بيدنا. وكرامته بكرامتنا فهي مصونة معززة"[١٢].

كان دليل الريحاني في هذا الطرح مشاركة المغاربة "طوعا" -حسب زعمه- في الحرب الأهلية الإسبانية بجانب قوات فرانكو، وسعادتهم بنصره على الجمهوريين، مستشهدا بما نشرته جريدة الصباح "وبعد ثلاث سنوات، في سنة النصر، تنشر جريدة < بريد الصباح > بتطوان سيرة بطل الثورة لأنه أقرب الناس إلينا جغرافيا، ولأنه نبغ في المغرب وقام فيه بحركته الشهيرة "[١٣].

بالعودة إلى المصادر التي عايشت اللحظة سنجد عكس ما تحدث عنه الريحاني، فهو لم يشر إلى احتجاج الخليفة الحسن بن المهدي على إقحام المنطقة في الصراعات الداخلية لإسبانيا[١٤]، ومن جهة ثانية كان لمشاركة المغاربة إلى جانب فرانكو في الحرب الأهلية الإسبانية دوافع عدة، منها تماطل الجمهوريين في تلبية مطالب الحركة الوطنية في الشمال، التي قاموا بتقديمها على شكل عريضة لرئيس الحكومة الإسبانية سنة ١٩٣١م[١٥]، إضافة إلى سيطرة فرانكو على المنطقة مع انطلاق الحرب الأهلية الإسبانية كما أشرنا سالفا، بل كانت الشرارة الأولى لانطلاقتها، ومن تم فالمنطقة كانت تحت حكمه، ثم إن خوف المغاربة من العقاب كان عاملا مساهما في مشاركتهم ضمن قوات فرانكو، لذلك عمل هذا الأخير على تمرير خطابه الاستعماري "المعسول" لإرضاء المغاربة[١٦]، حتى يضمن مشاركتهم إلى جانبه في الحرب، وضمان جبهته الخلفية ضد أي تمرد أو ثورة تضعف موقفه في الحرب مع الجمهوريين[١٧]. ويبقى الدافع الأسمى هو رجاء رجالات الحركة الوطنية في الحصول على مكاسب، وتحقيق مطالبهم المرفوضة من قبل الجمهوريين، وهو ما يمكن أن نقول عنه نوع من المصلحة المتبادلة، لا الحب والأخوة كما حاول الريحاني إيهام القارئ به.

سرعان ما تنكر فرانكو لهذه الوعود بعد نشوب الحرب العالمية الثانية، لتعوضها مطامعه الاستعمارية، خصوصا بعدما اعتقد أن فرنسا وإنجلترا ستنهزمان في الحرب ليقوم

باحتلال منطقة طنجة الدولية. واتضح أن خطاب فرانكو ووعوده كانت مرحلية فقط[١٨] . ومع انقلاب ميزان القوى لصالح فرنسا وإنجلترا عاد من جديد لخطابه القديم.

## ثالثًا: إسبانيا و"النهضة الوطنية" في شمال المغرب بعيون الريحاني

شهدت المنطقة الخليفية، زمن زيارة الريحاني لها، "نهضة" وطنية في مختلف المجالات، ونسب الفضل جله في هاته النهضة، إلى الحكومة الإسبانية في شخص مقيمها العام آنذاك خوان بيكبيدير فكتب يقول "من الأسباب المباشرة لتلك النهضة الوطنية ما تبذله في سبيلها الحكومة الإسبانية الخليفية، وخصوصا الإسبانية الحاضرة لا الماضية، أي حكومة الجنرال فرانكو التي يمتلها في المنطقة إسباني كريم، محب للمغرب وأهله حبا خالصا لا تشينه المصلحة، ولا يشبه الغموض... هذا الرجل هو الكولونيل ضون خوان بايبدر المقيم العام... وأذكره هاهنا، لما له من الفضل في النهضة المغربية الوطنية نهضة التعليم"[١٩].

يتضح من خلال هذا المقتطف أن الريحاني ربط "الصحوة" التي عرفتها المنطقة الشمالية بالمقيم العام بيكبيدير وبالتالي بحكومة فرانكو، متجاهلا الدور الكبير الذي لعبه الوطنيون المغاربة في المنطقة وعلى رأسهم الحاج عبد السلام بنونة ومحمد داود وعبد الخالق الطريس وغيرهم[٢٠]، فهل من المعقول تحقيق "نهضة" وطنية في مدة وجيزة وفي ظل حرب أهلية طاحنة؟

حاول المقيم العام خوان بيكبيدير منذ تعيينه في دجنبر ١٩٣٦م، ربط علاقات طيبة مع رجالات الحركة الوطنية المغربية بشمال المغرب، لكن الميزة الأساسية لهذه العلاقة كانت هي المنفعة وتبادل المصالح[٢١]، وهكذا سمحت السلطات الإسبانية للحركة الوطنية بالقيام بأنشطتها السياسية، ورخصت بإصدار الصحف وتأسيس الأحزاب والجمعيات[٢٢]، وذلك في إطار سياسة انفتاحية لدغدغة مشاعر عرب المشرق[٢٣]. ومن بين المجالات التي حظيت باهتمام إسبانيا خلال هذه المرحلة مجالات التعليم وحرية الصحافة وتأسيس الأحزاب السياسية.

### ٣/١-مجال التعليم

استهل الريحاني الحديث عن التعليم، بمقارنة بين ما تنفقه الحكومة الفرنسية على هذا القطاع، وما تنفقه الحكومة الإسبانية؛ ففي المنطقة السلطانية؛ تصل نفقات وزارة المعارف إلى خمسة وسبعين مليون فرنك، مقسمة إلى خمسين مليون للتعليم الفرنسي الإسرائيلي، وثلاثة وعشرين مليون للتعليم الإسلامي المغربي، وعبر عن ذلك بقوله "أي أن مليونين ونصف مليون ليرة تخصص لأبناء الأقلية، ومليون ليرة لأبناء الأكثرية الساحقة في البلاد"[٢٤]، في حين أن الحكومة الإسبانية تنفق أربع أخماس ميزانية المعارف على المغاربة، وأقل من خمس واحد على تعليم أبناء الإسبان، فيقول "ها هو ذا أحد وجوه التفاوت بين الحكمين الفرنسي والإسباني في المغرب"[٢٥].

أما عن المشاكل التي تواجه الحكومة الإسبانية في ميدان التعليم، فقد حددها الريحاني في صعوبة إيجاد المعلمين والمعلمات "فهمت أن الحكومة تستطيع أن تبني من المدارس في بضع سنوات ما يكفي الثمانين ألف طالب وطالبة. فمن أين تجيء بالمعلمين والمعلمات؟ إنها تحتاج إلى ألف وستمائة معلم لتعليم ثمانين ألفا من البنين والبنات. ولا يتيسر وجود العشر من هذا العدد في المنطقة اليوم"[٢٦]، لذلك عمدت الحكومة لإنشاء دار المعلمين من أجل حل المشكل تدريجيا، وبعث مجموعة من الطلبة إلى مدرسة النجاح بنابلس؛ البعثة الأولى في ١٩٣٠م، والثانية في ١٩٣٣م[٢٧]. وفي سنة ١٩٣٨ تم افتتاح بيت المعرفة بمصر، حيث يقيم طلبة مغاربة فيه لتلقي العلوم المختلفة. كما عمد بيكبيدير إلى جلب معلمين من مصر ولبنان[٢٨]. نوّه الريحاني بالتعاون بين الإقامة العامة الإسبانية والخليفة السلطاني حول مشاريع التعليم، "فعندما يقول المقيم العام للخليفة الحسن أو الصدر الأعظم إن مديرية المعارف تحتاج إلى زيادة مليون أو مليونين من البسيطات في ميزانيتها، فالحسن، دامت حكمته، لا يتردد في كتابة الظهير بل قد يكون أسرع بالأمر من المقيم العام بالاقتراح"[٢٩].

كانت للظروف المتباينة بمنطقة الحماية الإسبانية بسبب الحرب الأهلية الإسبانية، دور أساسي في السماح بتطوير مجال التعليم بالمنطقة، عن طريق تأسيس مجموعة من المدارس والمعاهد[٣٠]، إلا أن العديد من هذه المدارس والمعاهد كانت قد أسست قبل هذه المرحلة بكثير، وساهم في تأسيسها بشكل أساسي الرعيل الأول لرجال الحركة الوطنية بشمال المغرب، وعلى رأسهم الحاج عبد السلام بنونة انطلاقا من سنة ١٩١٦م[٣١]، بحيث أن حكومة فرانكو لم يكن لها أي تصور عن التعليم المغربي[٣٢]، لذلك عمل فرانكو على إصلاح التعليم بالمنطقة، حتى يستطيع التحكم فيه خدمة لمصالحه، وعليه تم استصدار مرسوم في ٢٩ يناير ١٩٣٧م، يحدد الخطوط العريضة للسياسة التعليمية الجديدة، ونص هذا المرسوم على الفصل الكامل بين التعليمين المغربي والإسباني، وكان ذلك بهدف

تقسيم المغاربة بدعوى احترام الخصوصيات[٣٣]، ونص المرسوم أيضًا على إنشاء مجموعة من المعاهد الخاصة، منها المعهد الحر الذي أشاد به الريحاني، وقد كان من بين الأهداف المضمرة لهذه السياسة التعليمية خلق اختلاف ثقافي وإيديولوجي بين المنطقة السلطانية الفرنسية والمنطقة الخليفية الإسبانية[٣٤] وذلك تمهيدًا لفصل المنطقة بشكل نهائي عن المغرب.

خلال تطرق الريحاني لميزانية المنطقة الخليفية في ميدان التعليم بالخصوص، قارنها بالمنطقة السلطانية، ليبين بطريقة ضمنية إحدى الفوارق بين الحكومتين، والمتمثلة في ارتفاع نفقات التعليم في المنطقة السلطانية، ولكنها مخصصة لأبناء الفرنسيين والإسرائيليين (اليهود) أكثر من أبناء المغاربة المسلمين، على عكس الحكومة الإسبانية التي تصرف أكثر من ثلثي الميزانية على أبناء المغاربة[٣٥]، لكن الهدف منه لم يكن تطوير المنطقة كما يقول الريحاني، وإنما تماشيا مع الظروف التي فرضت على فرانكو الرضوخ لمطالب الوطنيين المغاربة.

لم تستمر هذه السياسة طويلا، حيث نجد أنه ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية، حتى عرقل الإسبان عملها ومنعوا الطلاب من الدراسة حتى مستوى الباكالوريا، بقطع الإعانة المالية العمومية، وسحب الأساتذة الإسبان الذين كانوا يدرسون بالمعاهد التي شيدت في المنطقة الخليفية[٣٦].

### ٢/٣-حرية الصحافة والأحزاب السياسية

عمد فرانكو إلى إدخال بعض الإصلاحات في المنطقة الخليفية كما ذكرنا سابقا، من هذه الإصلاحات منح حرية الفكر والعمل الصحفي والاجتماعات للوطنيين المغاربة، وكتب الريحاني تعبيرا عن هذه الحرية بالقول "لا يتمتع بها {أي الحرية} ويا للآسف جلالة السلطان نفسه"[٣٧]. في إشارة إلى القمع الذي جوبهت به الحركة الوطنية في المنطقة السلطانية من قبل الفرنسيين.

وفي هذا الإطار ساق لنا مواقف الأحزاب الوطنية التي رأت النور خلال هذه المرحلة، فحسب ما جاء به الريحاني، فإن حزب الإصلاح اعتبر التعاون مع إسبانيا لإدخال الإصلاحات أمرًا مفيدًا "وإذا كان نظام الحماية في جوهره هو نظام الإصلاحات فلا نظن أن التعاون مع الحكومة الإسبانية على تنفيذ الإصلاحات الضرورية إلا مفيدًا "[٣٨]. أما حزب الوحدة، فموقفه لا يختلف عن حزب الإصلاح "ومن حسن الظن أن الحكومة الإسبانية حافظت على مبدأ الحماية في أكثر تصرفاتها ... وأظهرت استعدادها لسماع صوت المغاربة وتحقيق أمانيهم. فلذلك تقف الوحدة المغربية من إسبانيا موقف التفاهم والتعاون والنقد الهادئ "[٣٩]، وفي مقابل هذه المواقف ساق لنا مواقفها من الحماية الفرنسية، فحزب الإصلاح مثلاً اعتبر أن "الحماية لم تقم في المغرب بما التزمت به بموجب معاهدة فاس (١٩١٢) في أي ناحية من نواحي الإصلاح. بل إن نظامها أتى بعكس المطلوب. فوجد المغاربة أنفسهم بعد خمس وعشرين سنة من إعلان الحماية، أمام مزاحمة أجنبية لا طاقة لهم للتغلب عليها. فالإصلاحات المقترحة في هذه المطالب هي أقل ما يقنع الأمة بحسن نية الدولة الحامية. وقد شعر المغرب اليوم بوجوده المستقل وبوجوب الاحتفاظ بهذا الوجود"[٤٠]، أما حزب الوحدة فاعتبر أنه "لا مبرر لتدخل الفرنسيين من الوجهة القانونية والدولية إلا شيء واحد هو مساعدة المخزن الشريف، بموجب معاهدة فاس (١٩١٢) على إدخال الإصلاحات الضرورية في مملكته. وحيث أن المكلفين من الحكومة الفرنسية اتبعوا في المغرب منذ إعلان الحماية إلى الآن سياسة الفتح والاحتلال والاستعمار والاندماج فحركة الوحدة المغربية تبذل كل جهودها لمقاومة هذه السياسية ولإقناع ممثلي فرنسا في المغرب بتطبيق سياسة الحماية الحقيقية وتنفيذ الإصلاحات الموعود بها الشعب المغربي حتى يستعد لاسترجاع حريته وتستعد الدولة المغربية لاستعادة استقلالها "[٤١]. وقد كان هدف الريحاني من إبراز هذه المقارنة، تبيان الاختلاف الكبير في موقف الأحزاب المغربية من الحمايتين الإسبانية والفرنسية، فالحماية الإسبانية مقبولة لديهم، عكس الحماية الفرنسية. إضافة إلى ذلك تأسست العديد من الجرائد خلال مرحلة فرانكو، كجريدة الريف والحياة والحرية والأمة والوحدة المغربية[٤٢]، وذلك تبعًا للتساهل الذي أشرنا إليه سلفًا.

ومن جملة ما قاله الريحاني عن المنطقة، معبرًا عن تفاؤله بحرية الصحافة وتأسيس الأحزاب السياسية قوله إن المنطقة الخليفية هي باب الإصلاح للمغرب كله "هذه المنطقة الخليفية ـ إذن هي الباب للمغرب أجمع ـ باب الإصلاح والتجدد، باب الرقي والعمران، باب الثقافة والعلم، باب الحرية والاستقلال "[٤٣]. وبالتالي فقد حاول الريحاني إظهار مدى الانسجام والرضى المتبادل بين الحركة الوطنية المغربية وحكومة الجنرال فرانكو، مركزا على مسألة الحب والود المتبادل، دون الإشارة إلى أن هذه الإصلاحات وهذه الحرية النسبية حكمتها ظروف الحرب الأهلية الإسبانية من جهة، والعزلة التي كانت تعاني منها إسبانيا دوليا من جهة ثانية.

أشاد الريحاني بالحرية التي تتمتع بها الصحافة والأحزاب السياسية، مستشهدًا بمواقف الأحزاب السياسية من الحكومة الإسبانية، ولم يشر إلى أن المندوب السامي بيكبيدير، كان يطمح إلى إيجاد وسيلة لإنشاء اتجاه سياسي منافس لحزب الإصلاح الوطني الذي تزعمه عبد الخالق الطريس، ووجد في المكي الناصري مبتغاه، وطبق سياسة فرق تسد من أجل إضعاف الحركة الوطنية بالمنطقة الشمالية[٤٤]، والدليل على أن فرانكو وحكومته كانوا يعملون بمبدأ براغماتي صرف، هو تراجعهم عن هذه الإصلاحات بمجرد قرب انتهاء الحرب الأهلية وانتصارهم على الجمهوريين[٤٥]، وكانت أولى الخطوات هي إقالة المندوب السامي خوان بيكبيدير وتعويضه بالجنرال أسينسيو بتاريخ ١٧ غشت ١٩٣٩م، الذي قام بالقضاء على كل المبادرات الإصلاحية السابقة[٤٦]. ومع ذلك وجب الإقرار بأن المنطقة الخليفية، تمتعت بهامش من حرية التعبير (الصحافة) لم تتمتع بها المنطقة السلطانية خلال مرحلة الحرب الأهلية الإسبانية.

### ٣/٣-خلاصات حول الإصلاحات الفرانكاوية وموقف الريحاني منها

زعم الريحاني أن إسبانيا تريد الخير للمغرب وأن سياستها الإصلاحية نابعة من الحب المتبادل بين البلدين، ولا تطمح إلى الاستفادة من المغرب، وذلك خلال إحدى حواراته مع بيكبيدير حيث قال على لسان هذا الأخير "أريد أن يكون الخير كله. مائة في المائة، لأهل البلاد، إسبانيا لا تريد أن تربح من المغرب[٤٧]. فإلى أي حد كانت آراء الريحاني صائبة؟ وما الخلفية الإيديولوجية التي تحكمت في كتابه عن المنطقة الخليفية؟

عمومًا، عمدت الحكومة الإسبانية لتعويض النقص الحاصل في تدبير شؤون المنطقة، مقارنة بنظيرتها الفرنسية في المنطقة السلطانية، أسلوب الدعاية وأولتها اهتماما كبيرا خصوصا على عهد فرانكو[٤٨]، وحسب ما أورده الريحاني فهذه الحملة الدعائية، هدفت إلى التعريف بالمنشآت والإصلاحات الإسبانية بالمنطقة الخليفية وما تطمح إليه في إنتاجها سياسة غير نفعية[٤٩]. كما أن التحاق الأساتذة من لبنان ومصر للتدريس في المنطقة الخليفية، جاء في سياق هذه الحملة الدعائية للجنرال فرنكو الموجهة للبلاد العربية[٥٠]. وعليه؛ فإن زيارة الريحاني للمنطقة الخليفية خلال هذه المرحلة، تدخل ضمن هذا المخطط الدعائي الاستعماري لإسبانيا، وذلك في إطار تطبيع العلاقات العربية الإسبانية لتجميل صورة الإسبان عند العرب وتبرير احتلالهم للمنطقة الشمالية المغربية.

إذن؛ فالسياسة الإسبانية بالمنطقة الخليفية، من هذا المنطلق لم تكن وليدة الحب المتبادل بين المغاربة والإسبان كما زعم الريحاني، بل ارتبطت بمصالح فرانكو من جهة، ومحاولة كسب ود المغاربة من جهة أخرى ضدا على فرنسا، ولعل خطبة المقيم العام بيكبيدير أثناء تنصيب الريحاني مديرا شرفيا لمعهد الدروس العربية[٥١]، ومرافقة كل من أراغون وطوباوْ -موظفان ضمن الإقامة العامة الإسبانية- طوال مراحل رحلته، خير دليل على أن زيارته لم تكن بريئة من الحمولة الدعائية السياسة والرسمية، على عكس ما عبر عنه في مستهل مؤلفه بقوله "بعد رحلاته العربية المتعددة، التي استأثرت بي بضع سنوات، نشأت الرغبة في رحلة إلى بلاد عربية أخرى، أسماها العرب الأقدمون المغرب الأقصى. وما كانت هذه الرغبة بأقل إلحاحًا واستبدادًا من الرغبات في الرحلات التي تقدمتها، بل كانت أشدّ وأحدّ فنفذت إلى أقصى نواحي النفس، وصارت تحنّ كالقلب الفتيّ، قلب العاشق، إلى ذلك البلد العربي في أفريقيا الغربية الشمالية."[٥٢].

## خَاتِمَةٌ

يكتسي كتاب "المغرب الأقصى"، قيمة علمية بارزة وأهمية تاريخية كبيرة، نظرًا لما يحتوي عليه من معلومات حول الحماية الإسبانية بالمنطقة الخليفية، وبالخصوص على عهد فرانكو، على الرغم من تحيزه الواضح للحماية الإسبانية، إلا أنه يقدم لنا مجموعة من المشاهدات والحوارات مع شخصيات بارزة وفاعلة في الأحداث، وهذا ما يجعله مصدرًا مهما لكل باحث في موضوع الحماية الإسبانية بالمغرب، كما قدم معلومات عن الحياة الاجتماعية للمغاربة، وعن العادات والتقاليد من لباس وصناعات محلية، وأفرد إحصاءات دقيقة عن السكان، وعن ميزانية الحكومة المغربية بالمنطقة المدروسة، وعن نشأة الأحزاب السياسية وعملها. وبالتالي فإن رحلة الريحاني جاءت بمعلومات ثمينة حول المنطقة، يمكن دراستها من عدة جوانب، لأنها غنية وغزيرة بالمعلومات. كما تشكل شخصية صاحبها أمين الريحاني حافزًا للدارسين، نظرًا لكونه يمثل نظرة مشرقي للمغرب والمغاربة، على الرغم من الأهداف المضمرة للرحلة في إطار العلاقات الفرانكو - عربية.

## الاحالات المرجعية:

(١) يُقصد بالمنطقة الخليفية منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب، وكانت تسمى بالخليفية نسبة إلى وجود خليفة السلطان بها، في حين كانت تسمى منطقة الحماية الفرنسية بالمنطقة السلطانية نسبة إلى وجود السلطان الشرعي بها.

(٢) أحمد المكاوي، "**الريحاني، أمين"، معلمة المغرب**، الجزء ٢٥، مطابع سلا ومطبعة النجاح الجديدة، ٢٠١٠، ص ١٣٤ ــ ١٣٦.

(٣) أمين الريحاني، **المغرب الأقصى**، مؤسسة الريحاني ودار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٥، ص ٤٨٥.

(٤) التهامي الوزاني، **المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب**، تحقيق وتعليق محمد بن عزوز حكيم، مطبعة الساحل، الرباط، ط١، ١٩٨٠، ص ١٤١.

(٥) محمد داود، **على رأس الثمانين**، مراجعة حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، ٢٠١١، ص ١٨٨.

(٦) التهامي الوزاني، **تاريخ المغرب**، ج٣، مطبعة الريف، تطوان، ط١، ١٩٤٠، ص ٢٤٨.

(٧) عبد الرحيم برادة، **إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية (١٩٣١-١٩٥٦)**، ج ٢، إفريقيا الشرق-المغرب، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص ٦٨.

(٨) أمين الريحاني، **المغرب الأقصى**، مرجع سابق، ص٢١٠ ـ ٢١١.

(٩) التهامي الوزاني، **المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شما المغرب**، تحقيق وتعليق محمد بن عزوز حكيم، مطبعة الساحل الرباط، ط١، ١٩٨٠، ص ١٤١

(١٠) التهامي الوزاني، **تاريخ المغرب**، مرجع سابق، ص ٢٤٨.

(١١) الريحاني، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(١٢) نفسه، ص ٢٤٨.

(١٣) نفسه، ص ٢٠٨.

(١٤) بوبكر بنونة، **وثائق حزب الإصلاح الوطني**، ج١، مطابع الشويخ تطوان، ط١، ٢٠٠٧، ص ١٩.

(١٥) محمد ابن عزوز حكيم، **لمحات من حياة المجاهد الحاج الطيب بنونة**، منشورات مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والنشر، السلسلة الشاملة، رقم١، مطبعة الساحل، ط١، ١٩٨١، ص ٣٦.

(١٦) عبد الرحيم برادة، **إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية (١٩٣١ – ١٩٥٦)**، ج ١، إفريقيا الشرق-المغرب، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص٦٧.

(١٧) المهدي بنونة، **المغرب...السنوات الحرجة**، مطبوعات جريدة الشرق الأوسط، ط١، ١٩٨٣، ص ٥٧.

(١٨) نفسه، ص ٦٨.

(١٩) الريحاني، مصدر سابق، ص ١٨٤.

(٢٠) حول هذا الموضوع انظر: مراد المعاشي، عبد **السلام بنونة ١٨٨٨ – ١٩٣٥م**، بحيث لنيل شهادة الماستر، جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق-البيضاء، ٢٠١٩، مرقون.

(٢١) محمد العربي المساري، **المغرب خارج سياج الحماية**، منشورات عكاظ الرباط، ط١، ٢٠١٢، ص ١٦٢.

(٢٢) محمد داود، **على رأس الثمانين**، مرجع سابق، ص ١٩١.

(٢٣) محمد العربي المساري، **موقف تطاون من الاعتداء على العرش**، ضمن **تطوان وثورة الملك والشعب: من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الأمنية الرباط، ط١، ٢٠٠٧، ص ٣٦.

(٢٤) الريحاني، مرجع سابق، ص ١٦٠.

(٢٥) نفسه، ص ١٦١.

(٢٦) نفسه، ص ١٨٦.

(٢٧) لم يوفق الريحاني في إيراد تواريخ إيفاد البعثات الطلابية إلى نابلس، فالأولى كانت سنة ١٩٢٨م وليس عام ١٩٣٠، والثانية سنة ١٩٢٩م وليس بعد ثلاث سنوات (١٩٣٣)، كما سمى مدرسة النجاح بمدرسة الفلاح. انظر: أحمد المكاوي، **"من تجليات الحضور المغربي ببلاد الشام في النصف الثاني من القرن ٢٠"، جوانب من علاقات المغرب بالبلدان المتوسطية (مصر-بلاد الشام-فرنسا)**، تنسيق عبد المجيد بيهيني، منشورات مختبر المغرب والبلدان المتوسطية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية –الجديدة-، دار أبي رقراق للطباعة والنشر-الرباط، ط١، ٢٠١٥، ص ١١١-١٣٥. الهامش رقم١ ص ١٢٤.

(٢٨) الريحاني، مرجع سابق، ص ١٨٧-١٨٨.

(٢٩) نفسه، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣٠) ديمس جون جيمس، **حركة المدارس الحرة بالمغرب (١٩١٩ ـ ١٩٧٠)**، ترجمة السعيد المعتصم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١م، ص ٧١ ـ ٧٢.

(٣١) المعاشي، **عبد السلام بنونة ١٩٨٨ – ١٩٣٥م**، مرجع سابق، ص ١٤.

(٣٢) برادة، ج٢، مرجع سابق، ص ٩٠.

(٣٣) برادة، ج٢، مرجع سابق، ص ٩٠ ـ ٩١.

(٣٤) عز المغرب معنينو، **"بعثة مولاي الحسن بن المهدي التي توجهت من تطوان إلى مصر سنة ١٩٣٨م"**، مجلة دعوة الحق، العدد ٣٥٩، يونيو ٢٠٠١، في: htpp://habous.gov.ma/dauat-alhaq/item/8710.(6juin2016).

(٣٥) الريحاني، مرجع سابق، ص ١٦٠.

(٣٦) برادة، ج٢، مرجع سابق، ص ٩١.

(٣٧) الريحاني، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

(٣٨) نفسه، ص ٢١٩.

(٣٩) نفسه، ص ٢٤٤.

(٤٠) الريحاني، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(٤١) نفسه، ص ٢١٨.

(٤٢) انظر عادل المرابط، **إسهامات الشيخ محمد المكي الناصري في التأسيس للعمل الصحفي بشمال المغرب من خلال جريدة الوحدة المغربية**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط١، ٢٠١٧.

(٤٣) الريحاني، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

(٤٤) ديمس، **حركة المدارس الحرة بالمغرب**، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٤٥) محمد العربي المساري، **المغرب خارج سياج الحماية**، مرجع سابق، ص ١٧١.

(٤٦) محمد داود، **تاريخ تطوان**، ج١١، منشورات جمعية تطاوين أسمير، ٢٠٠٩، ص ١٢٩.

(٤٧) الريحاني، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

(٤٨) برادة، ج٢، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٤٩) الريحاني، مصدر سابق، ص ١٦١.

(٥٠) أحمد المكاوي، **"جوانب من الحضور الشامي في المغرب قبيل الحماية وإبانها"، العلاقات المغربية الشامية: قضايا منهجية**، تنسيق عبد المجيد بيهيني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية –الجديدة-، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٠، ص٥٩-٨٢.

(٥١) خطبة المقيم العام في الصفحات من ٥٣٤ ــ ٥٤٠. تختصر منجزات الحكومة الإسبانية بالمنطقة. الريحاني، مصدر سابق.

(٥٢) الريحاني، مرجع سابق، ص ٧.